تصديـــــر

ما المبرر الذي دعا مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري إلى الجمع بين أميرين عربيين تفصل بينهما مسافة بعيدة مكاناً وحقبة مديدة زماناً في كتاب واحد؟ لقد كانت الموازنة بين شخصيتين أحد الفنون التي عرفها التراث، وكلنا نذكر الكتاب الشهير للآمدي «الموازنة بين البحتري وأبي تمام»، وإذا كانت الموازنة تهدف أساساً إلى ترتيب قيمي لشخصين يشتركان في مجال واحد ومتقاربين زماناً ومكاناً وإعطاء المبررات لذلك، فليس هدفنا في هذا الكتاب إجراء موازنة بين الأميرين خصوصاً أن الاختلاف في البيئة يفقد هذه الموازنة عدالتها، لأن لكل بيئة مواضعاتها، ولا يجوز أن نحاكم شخصاً بقوانين عصر آخر.

الهدف هو رصد بعض الملامح المتشابهة بين الأميرين، فنحن لسنا مع من يقول: بأن التاريخ يعيد نفسه، ولكننا نؤمن بأن هناك قوانين غير مكتوبة للتاريخ تتبدى بأشكال مختلفة، مما يبرر لنا البحث عن بعض هذه القوانين المراوغة التي تلتقطها العين الذكية من خلال الكثير من الأمور المتباينة والمتساوقة.

وإذا كانت هناك بعض التشابهات الظاهرية بين الأميرين فإن التشابه الجوهري بينهما أنهما خاضا معركة واحدة غير متكافئة مع عدو واحد في أزمنة وأمكنة مختلفة.

فأبو فراس واجه - كواحد من قواد سيف الدولة - على الحدود الشمالية للعالم العربي دولة الروم، وهي أحد جذور الغرب المعاصر، وهذه الجبهة ظلت مشتعلة منذ غزوة تبوك - التي كانت تحركاً وقائياً - وعلى مدى ثمانية قرون حتى سقوط الدولة البيزنطية أمام محمد الفاتح في أطول حرب عرفها التاريخ، وكانت الدولة الحمدانية تتحمل في النصف الأول من القرن الرابع الهجري بإمكاناتها الضعيفة عبء هذا الحرب، بينما وقفت الخلافة العباسية والدول الأخرى التي تتوزع الوطن العربي متفرجة وأحياناً متواطئة، وكلنا نذكر بيت المتنبي الشهير وهو يخاطب سيف الدولة.

وســـــوى الروم خلف ظهـــــركَ رومٌ

فـــــعلى أي جـــــانبـــــيك تميلُ

كان على الدولة الحمدانية أن تجابه الروم وحدها في معارك متصلة، بالإضافة إلى القبائل المتمردة، والحكام الطامعين، ولم تكن شجاعة سيف الدولة وأبي فراس كافية لسد الخلل بين

طرفي المواجهة، فما لبثت الدولة الحمدانية أن انهارت واستولى الروم على الثغور، وامتدت هجماتهم من الحدود الشمالية إلى عمق بلاد الشام تخرب وتسبي دون أن تجد رادعاً في عالم عربي يعجّ بالفوضى والاختلاف.

كانت معركة أبي فراس غير المتكافئة مع الروم حلقة من المواجهات المستمرة بين غرب عدواني عنصري يريد بسط هيمنته على العالم وبخاصة المنطقة العربية التي أخذت منذ ظهور الإسلام تشكل منطقة إشعاع وجذب عالمية تبشر بالمساواة والعدالة ومثلت التحدي الأساسي لمطامع الغرب، وهذا التناقض بين منهجين جعل المواجهة محتمة ومستمرة، فمن مواجهات مع الدولة البيزنطية إلى الحروب الصليبية، إلى معارك استرداد الأندلس، إلى معارك البحر المتوسط والمغرب، إلى الاستعمار الحديث، إلى إنشاء إسرائيل، معركة واحدة الهدف منها الهيمنة الاستعمارية وإن لبست أحياناً برقع الدين للتحميس أو للخداع.

وواجه الأمير عبدالقادر في الجزائر حلقة أخرى من حلقات هذه الحرب المستمرة ممثلة بفرنسا، التي اختلقت حادثة تافهة لتبرر بها احتلالها للجزائر ثم إلحاقها بفرنسا، وتزعم الأمير عبدالقادر المقاومة، وخلال خمسة عشر عاماً حاول خلالها أن يستجمع كل الطاقات الممكنة ويطورها، ولكن بطولته وشجاعته لم تطمس الفارق الكبير بين أوربا ناهضة وشرق متخلف. وكما حدث في المشرق حدث في المغرب، تحملت الجزائر وحدها عبء الضغط الأوربي، ووقفت سلطات تونس والمغرب والدولة العثمانية متفرجة بل ومتواطئة أحياناً، وواجه الأمير كما واجه سيف الدولة رواسب التخلف، فكان عليه أن يحارب على جبهتين جبهة العدو الخارجي وجبهة العدو الداخلي (قبائل المخزن - بقايا الأتراك - بعض الطرق الصوفية . . .) وكانت النتيجة استسلام البطل دون أن يفقد احترامه في نظر العدو والصديق.

إن الأميرين أبا فراس وعبدالقادر يقفان على تباعد التاريخ والمكان كبطلين في مواجهة مستمرة مع عدو تاريخي تتغير أشكاله وأسماؤه دون أن يتغير جوهره، ولقد أدى الأميران واجبهما الوطني والقومي. وإذا كانا لم يستطيعا أن يحسما المعركة لصالحهما فلأن المعركة تقتضي رداً عربياً موحداً يدرك طبيعة المعركة وأهدافها، وتقتضي تغليب الحس الوطني والقومي على التمزقات القبلية والمذهبية والحزبية والإقليمية.

لعلنا استطعنا إدراك إحدى قسمات تاريخنا الرئيسة من خلال وضع البطلين في إطار واحد. ولقد قام الدكتور أحمد درويش بمجهود ضخم في الجمع بين الأميرين في هذا الكتاب وبوقت قياسي، فله كل شكرنا وتقديرنا.

عبدالعزيز سعود البابطين

أغسطس ٢٠٠٠

بين يدي الكتاب

هذه مقارنة أوحت بها مناسبة، وليس كل ما توحي به المناسبات يذهب بذهابها، فروميات أبي فراس جاءت من وحي مناسبة أسره، وقصائد المتنبي وراءها مواقف ومناسبات من الرضى والغضب، وروائع ابن الرومي تثيرها أسباب من التوجس، والتخوف، والتشاؤم، ربما لا تصلح في نظر غيره من الناس مثيراً لأية مشاعر.

وتاريخ الآداب والفنون يعرف الكثير من الأعمال الخالدة التي أوحت بها مناسبات عابرة.

وفكرة التقاء الأمير أبي فراس الحمداني، والأمير عبدالقادر الجزائري، في كتاب واحد أوحت بها فكرة تنظيم دورة للشعر ونقده في الجزائر، تحمل اسم «أبي فراس الحمداني» في إطار ما تقوم به مؤسسة البابطين من نشاط في هذا المجال، وبرزت فكرة الجمع بين الأميرين، انطلاقًا من كونهما مرّا بتجارب متشابهة على اختلاف المكان والزمان، فهما أميران، وفارسان، وأسيران في بلاد الفرنجة، وشاعران، على تفاوت في نصيب كل منهما في بعض هذه الصفات، وهما في نهاية المطاف يستظلان بثقافة واحدة، وقيم متوارثة تجلت أصالتها وجمالياتها في حياة كل منهما وآثاره.

ولقد قام الكتاب على مدخل تمهيدي يناقش منهج رسم الشخصية ومواطن الائتلاف والاختلاف في الشخصيتين اللتين تدور الدراسة حولهما، وما يمليه ذلك من طبيعة النظرة التي ترصد من خلالها كل شخصية منهما، وما ينبغي تلافيه في إطار رسم الصورة المتوخاة، وقد أعقب ذلك المدخل بابان، تم في أولهما الوقوف في رحاب

أبي فراس ، انطلاقاً من « النص الشعري » الذي يمثل موهبته الأولى التي أحلته مكانًا مميزًا في صدارة شعراء العربية في أوج تألقها ، واستعانة بالجوانب الضرورية من السيرة الفردية والجماعية ، واعتمادًا على المنهج الجمالي في قراءة النصوص .

وفي الباب الثاني تمَّ الوقوف في رحاب عبدالقادر انطلاقاً من « السيرة » التي شكلت مسيرته كمجاهد ، وقائد ، وصاحب هدف دقيق في بناء الدولة الحديثة واستنهاض مشاعر الأمة ، والتي أهلته لأن يكون في طليعة رجال نهضة الأمة العربية والإسلامية في العصر الحديث ، واستعانة ببقية مواهبه التي ساعدته على أداء هدفه ، ومن بينها الشعر والعلم .

ولعل في لقاء هذين العلمين بين طيات كتاب واحد ، ما يساعد على انعكاس مزاياهما الضافية في مراياهما الصافية ، فيتولد عن التقاء النور بالنور إشعاعات ينعكس ضوءها على الحضارة والفن العربيين ، مما قد يغري بالتأمل في مزيد من صفحاتهما الناصعة ، وتمثلها تأهباً لغد أفضل .

وبالله التوفيق ، ، ،

أحمد درويش

مسقط في ١٢من ربيع الأول سنة ١٤٢١ هـ

١٦من يونيو سنة ٢٠٠٠ م